الفصل الرابع عشر :

لم يهدم التعرف أكثر على إنطاكية انطباع المساء الأول، فكلما تجولت في شوارعها وساحاتها الضيقة أكثر بدت أكثر روعة، وفيما عدا الشارع الرئيسي حيث يوجد السوق فإنها خالية تقريباً، وقد شقت خطواتي طريقها على الرصيف المرصوف بالحصى التي حطمها السير عبر سنين من الصمت.

وقد أضفى الجملون الرقيق المغطى بالقرميد وشرفات الشعريات البارزة على الشارع من بيت إلى بيت سحراً لا يقاوم، ولا يوجد أي أثر من الماضي. وثمة ناووس حجري مزخرف بلفافات وأكاليل زهور مع تزيينات لأُسود ـ من طراز آسيوي كما أتصور ـ تلتهم ثيراناً ضخمة موضوع في دار الحكومة، وناووس آخر مشابه لذاك ولكنه أصغر وأقل دقة موجود بجانب طريق دفنه، كما شاهدت حطام سطح مقام على أعمدة في باحة منزل تركي، وحطام جدار في شارع رئيسي من المؤكد أنه يعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي، ويشبه تناوب القرميد والحجارة طبقات في بنائه ذلك الموجود في قلعة إغريقية.

أما إنطاكية سلوقس نيكاتور فهي مجرد مدينة خالية لأن الجزيرة التي بنيت فوقها قد اختفت بسبب تغير سير النهر، ولكن الأماكن التقليدية فيها موجودة في أعلى المدينة الحديثة، ولابد أن شواطئ العاصي كانت مزدانة بالدارات الفخمة.

وقيل: إن قواعد هذه الدارات تظهر كلما حفروا عميقاً في الطمي، ويتم اكتشاف أشياء صغيرة قيمة، مثل بعض العملات الذهبية أو البرونزية حيثما

نبشت الأرض، وقد جلبوا لي عدداً منها للبيع، ولكني تبينت أنها مزيفة على نحو غير متقن. وقد أكد رأيي هذا الباشا التركي رفعت آغا الذي يقضي أوقات فراغه بجمع العاديات الأثرية.

وفي حوزته مجموعة رائعة من العملات السلوقية، والأقدم منها جيدة مثل أفضل العملات السيسيلية، والحديثة منها سيئة مثل أسوأ العملات البيزنطية، وبعض المصابيح البرونزية، وكان أحد هذه المصابيح على شكل رأس إله الحب الإغريقي المجعد الشعر، وهو نموذج جميل للأعمال الرومانية.

وقد أهداني الآغا سراجاً برأس صغير الذي عدّه نموذجاً للرؤوس الإنطاكية ذات التاج العالي، ومع أنه على نحو غير متقن فإن له بعض الخصوصية المتميزة مأخوذة عن نموذج أصلي عظيم.

قبل أربعين عاماً كانت أسوار وأبراج القلعة الإغريقية ما تزال سليمة تقريباً، وهي الآن مخربة كلياً تقريباً، وقد قال سكان إنطاكية: إن المدينة تتعرض للزلازل فتخربها حتى أساساتها كل نصف قرن، وإنهم الآن يتوقعون زلزالاً يقلبها رأساً على عقب؛ لأن آخر زلزال فيها قد حدث عام / ١٨٦٢ / ٠ والحقيقة إن ازدهار المدينة قام على أنقاض القلعة وتخريبها لأخذ حجارتها، واتهام الزلزال بهدمها غير صحيح.

والمدينة واقعة على نحو رائع بواد غني وترتبط بميناء إسكندرون بطريق جيد جميل، ومن الممكن أن تصبح مركزاً تجارياً ضخماً بسهولة، وقد نمت حتى تحت الحكم التركي على نحو معتبر في الخمسين سنة الأخيرة حتى وصلت إلى القلعة اليونانية.

لا يردع الشرقي من أجل أن يجنب نفسه مصاعب اقتلاع الأحجار من المحاجر أي رادع، ولذلك فقد نقلت معظم أحجار القلعة المنحوتة من أعلى التل واستخدمت في أعمال البناء المختلفة، ويلاحظ أن كل البيوت الحديثة قد أخذت موادها من القلعة اليونانية، وأعمال الهدم مستمرة فالواجهات الحجرية قد أخذت من الأسوار بحيث لم يبق إلا الدبش والملاط الذي يتلاشى بسرعة بسبب العوامل الطبيعية.

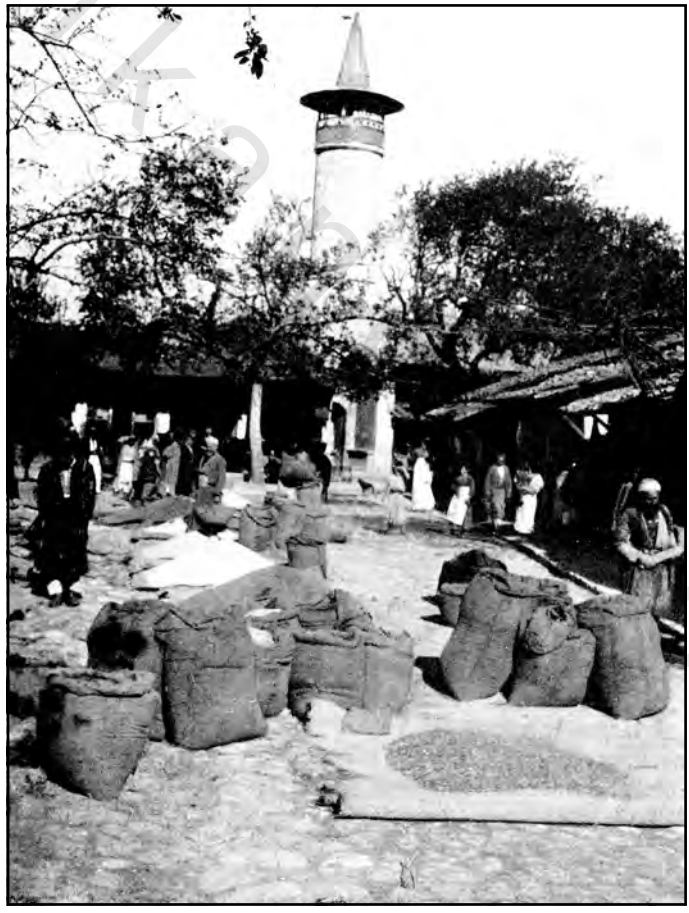

١٥٢ ـ إنطاكية ـ سوق الحبوب

وقد عملتُ جولة في القلعة ذات صباح فأخذتْ معي ثلاث ساعات، هناك إلى الغرب من قمة تل سيلبيوس شق صخري يسم جانب التل، وهو مليء بقبور صخرية منحوتة، كما أن ثمة قناة قديمة لجر المياه تجتازه، وهي تقع مباشرة فوق مخيمي، وإلى يسار الشق يهبط خط السور بصخور شديدة الانحدار حتى الوادي، وحيثما وجدت شظايا باقية من السور يلاحظ بوضوح أنه قد تم استبدال عصائب القرميد بالواجهة الحجرية.

وفي بعض الطبقات يلاحظ أحياناً أن الحجارة تتنوع على نحو تختلط فيه الحجارة الصغيرة مع الحجارة الكبيرة، وتحيط الأسوار بمساحة كبيرة من الأرض، ويسير القسم العلوي على منحدرات لطيفة مغطاة بالأعشاب والقواعد المحطمة حتى يصل إلى قمة الهضبة. ويوجد في السور الغربي باب حجري ضخم ضيق له أسكفة من الحجارة المتصلة وفوقه قوس محلى بارز. والسور الشمالي مهدم بجانب الأبراج. والحصن الرئيسي يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، وتهبط الأسوار من هذه الجهة بانحدار شديد مرة أخرى باتجاه المدينة وتمر على مسافة إلى الشرق منها.

ومن الممكن تتبع بقايا آثارها حتى العاصي فيما أعتقد، ولم أتعقب شخصياً سيرها، ولكنني هبطت من الحصن عبر ممر صخري في خانق عميق تم قطعه عبر الجهة الشرقية للهضبة، وقد دعم هذا الخانق الضيق بجدار قوي من القرميد والحجارة ويدعونه في إنطاكية باسم بوابة الحديد، وإلى الخلف منه تصعد التحصينات إلى الجهة المقابلة من المسيل وتستمر بالصعود على طول قمة الهضبة.

ولا أعلم مقدار مسافة امتدادها فالأرض وعرة جداً وممتلئة بالأعشاب والأشواك العالية إلى درجة هبط قلبي معها، وعدت أدراجي، ولاحظت وجود

١٥٣ ـ مصباحان في مجموعة رفعت آغا. إنطاكية

أنواع كثيرة من الزهور بين الصخور: أزريون، برواق أصفر وأبيض وأحمر، بخور مريم، وسوسن.

ووراء خانق بوابة الحديد وعلى جهة من الهضبة مطلة على العاصي يوجد كهف يطلق عليه الأهالي عرفياً اسم مغارة القديس بطرس، وقد شيدتْ طائفةُ اليونان كنيسة صغيرة على فم المغارة، ولا يزال على طول الهضبة بقايا من آثار غريبة تتحدث عن إنطاكية القديمة، إنه رأس إسفنكس مزين بنقوش تقف على صخرة بارتفاع عشرين قدماً، وقد ارتدتْ حجاباً انسدل على جانبي وجهها حتى وصل إلى حيث تتصل الحنجرة بالصدر، وملامحها الهادئة ملتفتة قليلاً نحو أعلى الوادي كما لو كانت ترقب أحداً سوف يأتي قادماً من الشرق.

ولو استطاعت الكلام لحدثتنا عن الملوك العظام ومواكب الفرسان الضخمة عن المعارك، والحصارات المتواصلة؛ لأنها رأت كل ذلك من خلال وقوفها على الصخر المرتفع بجانب الهضبة، وهي لا تزال تتذكر اليونان الذين

عرفتهم وهم يمشون من بابل، وحيث إن الرومان لم يعلموها بأن العالم الحي يعيش في الغرب[1]، فأنا لا أقدر أن آمل بتنويرها؛ ولذلك فقد تركتها تترقب بعض الأشياء الجديدة التي يمكن أن تأتي من الشرق.

كان ما يزال هناك حج آخر يجب القيام به من إنطاكية. كان الحج إلى دفنة، وهي المزار الشهير الذي يشير إلى موقع الحورية التي صدت رغبات الإله، بيت الماء كما يدعى في اللغة العربية، وهو يقع إلى الغرب من البلدة، ركوب ساعة على طول سفوح الهضاب، وهو في الربيع فاتن جداً لا يتوفر وجوده دائماً، ويمر الطريق عبر دغل من البراعم الخضراء المتداخلة بكثافة مع الزعرور البري المزهر، والزيزفون الأرجواني الغريب، ثم يعبر أنف جبل منخفض ليهبط بعد ذلك في واد شديد الانحدار يجري فيه جدول يهوي مسرعاً نحو العاصي.

لا يوجد أي أثر للمعابد التي كانت تزين هذا الحرم الأكثر جمالاً بين الأماكن المقدسة، فالزلازل والانهيارات الجبلية قد جرفتها إلى أسفل الوهدة، ولكن جمال الموقع لم يتأثر منذ الأيام التي كان سكان أكثر العواصم ترفاً في العالم يغازلون في هذه المعابد الفتيات اللواتي نذرن أنفسهن للمعبد.

ولا يندفع السيل بضجة كبيرة عندما يهبط من جهة الجبل، فهو يولد في بحيرة ساكنة عميقة تضطجع محاطة بثوب رائع من شجر السرخس وكزبرة البئر في أجمات «تمحق كل ما يؤثر في الفكرة النضرة في ظل أخضر».

(١) التفكير العنصري هنا واضح عند المؤلفة. لقد بقي الغرب غارقاً في ظلمات العصور الوسطى حتى القرن السادس عشر، ولم يصبح أكثر تقدماً من الشرق إلا في القرن الثامن عشر. (المترجم)

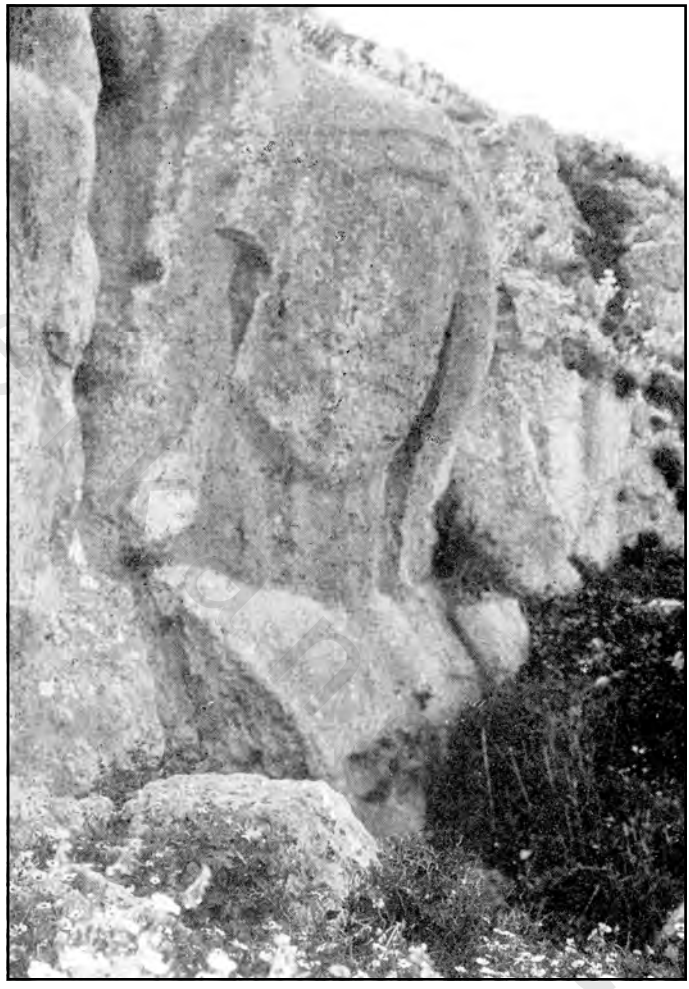

١٥٤ ـ رأس إسفنكس ـ إنطاكية

وينبثق من البحيرة نهر شاف غير مروض السطح، ضيق وعميق يجري مدوماً مدمدماً محدثاً أثناء ذلك شلالات مزبدة تقذف برذاذها الأبيض بين أغصان شجر التوت والدلب. وتجثم تحت الأشجار إحدى عشرة طاحونة ماء، والسكان الوحيدون الذين يقطنون معبد أبولو هم الطحانون المهلهلو الثياب، وقد قدموا

لنا جوزاً لنأكله على شاطئ الجدول، وأحجاراً كريمة صغيرة أثرية سقطت من زينة بعض الذين يبحثون عن المتعة على نحو ربما أقل براءة من متعتنا على شاطئ نفس الجدول.

١٥٥ ـ دفنه

من المستحيل أن تتجول في شمال سوريا دون أن تكتسب اهتماماً قوياً بالملوك السلوقيين على خلفية احترام عميق لنجاحاتهم في ميداني السياسة والفن، ولذلك فقد قررت أن أزور موقع سلوكيا بييريا، وميناء إنطاكية حيث قبر سلوقس نيكاتور قبل أن أندفع شمالاً.

لقد برزت العاصمة الداخلية والميناء البحري إلى الوجود في نفس اللحظة، كانا جزءاً من تصور عظيم أعاد المراكز الهامة للعاصي الأدنى سوقاً غنية وعامرة بالسكان، في تلك الأيام كان الملوك يستطيعون خلق مدن عالية شهيرة بمجرد التلويح بالصولجان، ولم يكن السلوقيون في مؤخرة المقلدين

للمثل الأعلى الذي وضعه لهم الإسكندر. وقد انكمشت أفاميا سلوقيا إلى قرية صغيرة. وربما كان من الأدق أن نقول إنها تمزقت إلى عدة قرى صغيرة تحت اسم السويدية (الاسم محير حيث إن لكل مجموعة من المزارع أو الأكواخ اسماً مختلفاً).

ويعود التباعد بين مواطن السكان في مصب نهر العاصي إلى طبيعة الأعمال التي يمارسها سكان هذه القرى، فهم يعملون بتربية دودة الحرير، وهي حرفة تتطلب من العاملين فيها أن يقيموا في مزارعهم شهراً في الربيع حيث أشجار التوت، وحيث إن أجمات هذه الأشجار متباعدة عن بعضها فقد نتج عن ذلك وجود مسافات بين مساكن الجيران.

وبعد ركوب ثلاث ساعات عبر منطقة مزدانة على نحو رائع بأدغال الآس وحدائق التوت وصلنا إلى قرية السويدية وهي مركز عسكري كما إنها الأكثر أهمية بين قرى المنطقة المتناثرة، وهنا ولأول مرة في رحلتي أوقفني ضابط وهو الأسوأ بسبب العَرَق[1]، وطلب مشاهدة جواز سفري، ولم يكن لدي جواز سفر إذ كنت قد أضعته عندما فقدتُ معطفي في جبل الزاوية، وهو يثبت كيف أن موظفاً تركياً متقيداً قليلاً بالروتين الحكومي يمكن أن يظهر أهميته عن طريق التقيد بهذا الروتين، مع أنني سافرت عبر نصف الإمبراطورية العثمانية بدون أن يكون لدي ورقة صغيرة تحدد هويتي، أو حتى اسمي.

وفي هذه المناسبة شرح الشرطي الذي كان يرافقني بحرارة أنه ما كان ليُطلَب منه مرافقتي لولا أنني شخصية محترمة ومفوضة، وبعد مجادلة قصيرة سمح لنا بمتابعة المسير، وسرعان ما وضح السبب في هذه الدقة

(١) الخمر.

الشديدة، فقرى الساحل تحتوي على نسبة كبيرة من السكان الأرمن، وهم محاطون بالنقط العسكرية من أجل منعهم من التسلل إلى داخل الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية أو عبر البحر إلى قبرص، ولذلك فإن دخول الأغراب إلى المنطقة وخروجهم منها مراقب تماماً، وأحد الموضوعات التي يجب على الرحالة أن يعد نفسه لها قبل بدء رحلته هو تجنب الوقوع في شباك القضية الأرمنية، إنها إدانة مفهومة ضمناً أو صامته للعالم في العصور الوسطى ولا يوجد قضية غير قابلة للتفسير كهذه القضية. فثمة قضايا يمكن أن تقدم مشكلات خطيرة أو صعبة، ولكنك إذا طرحتها أمام الرجل العاقل ـ فبعض العرب في إسبانيا على سبيل المثال عالم كلياً (من خلال الدراسة) بالتفاصيل إلى درجة يصبح معها من الأفضل عدم الاستفسار ـ فإنه سوف يقدم لك جواباً مقنعاً.

ولكن المشكلة الحقيقية هي أن تجد رجلك. ونحن على أي حال ابتعدنا عن ذلك المعتقد، وقد ثبتت لنا بالتجربة أن هناك العديد من المعضلات غير القابلة للحل مع الأسف أمام الرجل المثقف، وتمتلك الإمبراطورية العثمانية نسبة كبيرة من هذه المعضلات، فالقضية الأرمنية من هذه القضايا، وكذلك الأمر بالنسبة للمسألة المكدونية، ويكمن الجنون في مثل تلك الاتجاهات.

من العزم أن لا تتردد في اتخاذ القرار في الأمور ذات الإسهام المشترك. إلى حد كبير لم يكن لدي شك بأنني سوف أقوم برحلة طيبة وسعيدة عندما ركبت هابطة إلى شوليق، ميناء سلوقيا القديم، وقد وجدتُ أن قراري هذا أهون من أن يلاحظ بسبب أن الأرمن لا يعرفون إلا اللغة الأرمنية أو التركية، وعلى أي مستوى فإن الكلمات النادرة التي قد يعرفها بعضهم من اللغة العربية

لا تمكنهم من الدخول بأي محادثة حول الظلم الواقع عليهم. كان الرجل الذي عمل معي ذلك اليوم كدليل رجلاً مرح المزاج، وقد كان اختياره بالتأكيد بالأفضلية كموضوع غير اعتيادي، كان اسمه إبراهيم، ذكي، براق العينين، مرح على نحو يستحق الثناء، وحيث إن مجموع دخله السنوي لا يتجاوز أربعمئة قرش في السنة، أي أقل من ليرتين إنكليزيتين.

لذلك فقد قرر أن يوفر مقداراً مناسباً من المال ليرشو الموظفين الأتراك في الميناء ليغضوا الطرف عن هربه في قارب إلى قبرص. «لأنه» قال: «لا يوجد أية صناعة هنا إلا الصناعة المرتبطة بدودة الحرير، وهذه لا تقدم إلا شهري عمل في السنة، والأشهر العشرة يقعد فيها الإنسان عاطلاً عن العمل لا يستطيع أن يكسب فيها قرشاً واحداً». كما أخبرني أن النصيرية الذين يسكنون القرى المجاورة جيران غير سارين.

قلت: «هل هناك عداء بينكم وبينهم؟».

قال بلهجة مؤكدة: «أي والله!».

وروى مع التذويق قصة طويلة عن خصام حديث، الذي بدا لي حسب ما فهمت يعود كلياً لاعتداءات الأرمن.

قلت عندما انتهى من كلامه: «ولكن أنتم بدأتم السرقة».

قال: «نعم، النصيرية كلاب» وأضاف بابتسامة: «وقد سجنت في حلب سنتين بعد ذلك».

قلت: «بالله، وهل قضيتها».

قال بمرح كعادته: «نعم».

هذا.. وأنا سعيدة بأن أقول: إن سجنه هذا هو كل مساهمة إبراهيم من مخزون أدلته عن المسألة الأرمنية.

ليس خليج سلوقية غير مشابه لخليج نابولي، وليس أقل جمالاً بكثير.. حواف بعض هضابه شديدة الانحدار تنخرها القبور الحجرية والتجاويف كخلايا النحل، تشكل خلفية لحدائق التوت، وتلتف مطوقة الخليج من الشمال. وتقع إلى الأسفل منها بوابات ماء الميناء. وقد ملأها طمي الأرض، وفصلها

١٥٦ ـ الكهريز

عن البحر بشاطئ رملي، ويتدفق العاصي عبر الرمال ويمتد الطمي أبعد باتجاه الجنوب، والمنظر مغلق بسلسلة من الهضاب الشاهقة الارتفاع، بالغة أوجها في نقطة جنوبية بذروة تل كاسيوس البديعة التي احتلت محل فيسيوفيوس في المنظر العام.

ونصبتُ مخيمي قرب الحافة الشمالية في جون صغير على خربة مستورة عالية تشرف على كل مجرى الساحل، ومتعت نفسي بالتخيل بأن على هذه البقعة يقع معبد وقبر سلوقس نيكاتور مع أنني لا أعلم فيما إذا كان موقع قبره قد جرى تحديد مكانه على الإطلاق، وتحت هذا الموقع وعلى الشاطئ الرملي ثمة صخرة معزولة تم اكتشاف قاعة معمدة فوقها، تتضمخ هذه القاعة بعطر البحر وتنتعش بالهواء المالح الذي يهب عبرها. أي معبد رائع لحوريات البحر وإنصاف آلهته!

وأصعدني إبراهيم أسفل واجهة الجروف المنحدرة عبر ممرات صغيرة بجانب طريق قديم للعربات يقود إلى المدينة على قمة النجد، وقد قال: إن السير حول السور الذي يطوّق المدينة العليا يستغرق ست ساعات، وكان الطقس حاراً جداً بحيث لا يمكن وضع كلامه موضع الاختبار. وتسلقنا عدداً كبيراً من الكهوف الصناعية التي لم يكن يوجد في معظمها غريفات أو تجاويف قبور، وقد تكون قد حفرت من أجل السكن أو كمخازن وليس كقبور.

وفي هذا الوقت من السنة تمتلئ جميعها بمُرَبِيّ دودة الحرير الذين يمرون الآن بمرحلة الذروة بالنسبة لعملهم، فاليرقات سوف تنبثق الآن من البيوض، وقد سُدّ مدخل كل كهف بستر من الأغصان الخضراء لتقي داخل الكهف من حر الشمس ولتتسرب شمس العصر مصفاة بهيجة عبر براعم الأوراق الخضراء.

وفي النهاية الجنوبية للمنحدر ثمة مقبرة كبيرة تحتوي على كهوف حفر حول جدرانها الداخلية تجاويف ونواويس منحوتة مزينة (إذا زينت) بأكاليل من الزهور مشابهة لتلك الزينات الموجودة على نواويس إنطاكية، والمجموعة الأكثر أهمية من القبور موجودة في النهاية الشمالية للمنحدر، ويتم الدخول إلى المقبرة بجانب رواق معمد يقود إلى كهف مزدوج، وتحتوي الغرفة الكبيرة على غريفات يتراوح عددها ما بين الثلاثين إلى الأربعين غريفة إضافة إلى قبرين فوقهما ظله.

وقد تم نحت الظلة أو السقيفة من صخرة حية، أما الغرفة الصغيرة فتحتوي على نصف العدد من الغريفات، وقد تم تدعيم سقفها بأعمدة بعضها عادي وبعضها ناتئ من الجدار، ولاحظتُ فوق القبور تصاميم فنية منحوتة على نحو فج تحتوي على درجية على شكل نبات اللبلاب وأوراق مسننة.

يبدو أن البنائين السلوقيين كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بتوزيع إمدادات المياه، وقد أراني إبراهيم قناة تسير على طول حافة المنحدر بعرض قدمين، وعمق خمس أقدام قد نحتت خلف سطح الصخر بثلاثة إلى أربعة أقدام كانت تنقل الماء من أقصى طرف المدينة إلى طرفها الآخر، وتتبعنا مجراها من خلال فتحات تهوية اقتضائية أو صدوع في الجدار الخارجي الصخري. وكانت المعضلة الأكثر صعوبة هي التعامل مع السيل الذي يجري مندفعاً من خانق في شمال المدينة. وقد تم نحت سرب كبير في الصخر تحت أنف الجبل إلى جنوب مخيمي لتجري فيه مياه السيل إلى البحر ومنعها من جرف المنازل الواقعة في سفح المنحدر الصخري. والاسم المحلي لهذا النفق هو ـ الكهريز ـ وهو يبتدئ من فم وهد ضيق، ثم يسير كنفق تحت كتلة ضخمة من الأرض

الصخرية لمسافة عدة مئات من الياردات، ثم يستمر بعد ذلك في قناة مكشوفة منحوتة عميقاً في الصخور حتى تصل إلى نهاية أنف الجبل، وعند مدخل النفق ثمة نقش واضح الحروف يبتدئ بالعنوان التالي (ديفوس فيسباسيانوس ـ Divus Vespasianus) ثم تختفي بقية الكتابة مدفونة في الأرض الصخرية، وثمة كتابات أخرى في أكثر من مكان على طول الكهريز وكلها باللغة اللاتينية، ولذلك فأنا أتصور أن الكهريز روماني وليس سلوقيا.

وأغراني إبراهيم بمشهد آخر غير عادي، فقد قال إنني إذا تبعته عبر بساتين التوت تحت المنحدر فإنه سوف يريني رجلاً مصنوعاً من الحجر، كان فضولي قد أُنهك بسبب حرارة الشمس والسير الطويل، ولكني جاهدت عائدة بضعف فوق الحجارة وغيرها من المعوقات لأجد الإله، وقد حمل وسرق موضوعاً تحت أشجار التوت، لم يكن إلاهاً جذاباً جداً.

كان وضعه الجسماني منقبضاً وثوبه خشن الزي، وقد ذهبت قمة رأسه. كما لوحت الشمس الواهنة كتفه الرخامي وانحنت شجرة التوت تهمس باسمه القديم. وجلسنا بجانبه وقال إبراهيم ملاحظاً:

«ثمة واحدة أخرى مدفونة في الحقل، ولكنها عميقة جداً تحت التراب»

سألت: «هل رأيتها».

قال: «نعم، لقد دفنها مالك الحقل؛ لأنه ظن أنها قد تنحسه، ومن المحتمل إذا أعطيته بعض النقود أن يخرجها لك».

ولم أكن قادرة على قبول الاقتراح، وقد يكون من الأفضل أن تبقى في حيز الخيال.

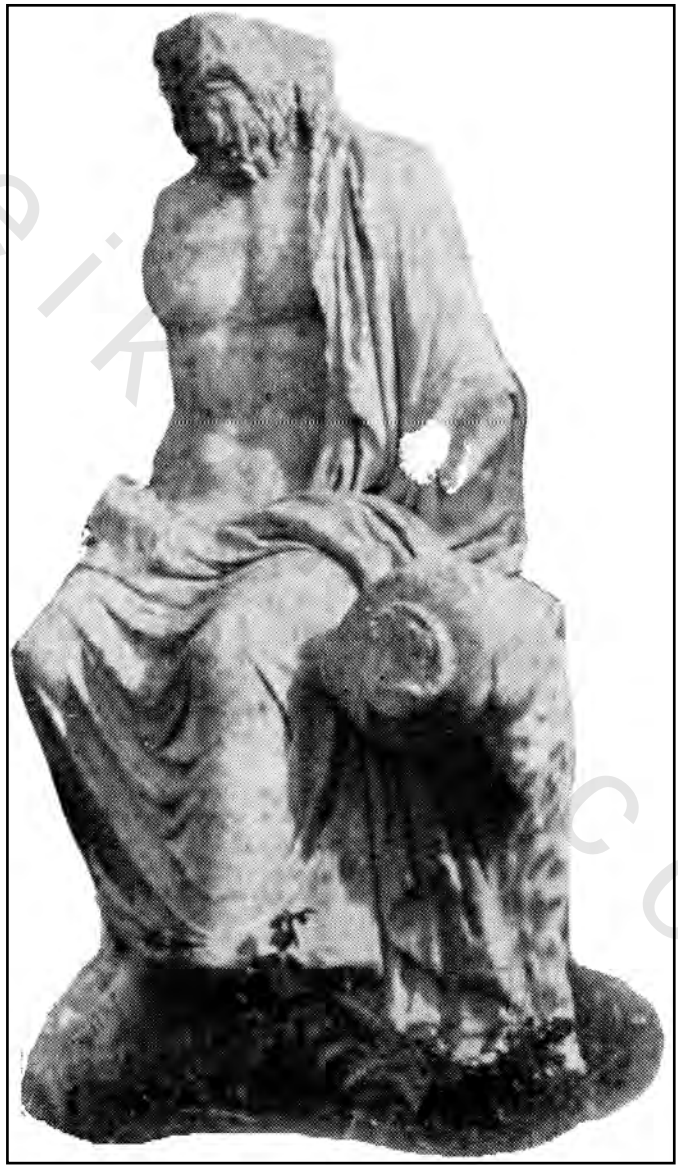

١٥٧ ـ التمثال في بستان شجر التوت

ورأيت بقرب التمثال طنفاً مزخرفاً طويلاً، كان بارزاً في موضعه على نحو واضح على الرغم من أن الجدار الذي يتوجه هذا الطنف مدفون في حقل الذرة، هكذا قد طمرت الأتربة الآثار السلوقية.

في يوم من أيام المستقبل سيكون هنا أعمال حفر استكشافية كثيرة من أجل الكشف عن الآثار السلوقية ولكن هذا الحفر سيكون مُكْلفاً؛ نظراً لعمق طبقة الطمي التي تغطي هذه الآثار في بساتين التوت وحقول الذرة، وإن موقع البلدة ضخم جداً، وسوف يحتاج الأمر إلى سنوات من الحفر من أجل الاستكشاف على نحو دقيق.

ثمة جدول بطيء السير يجري بجانب خيامي مشكلاً بحرة في الرمل، وهي تشكل مورد الماء لدوابنا ولقطعان ماعز رعيان الأرض الصغار الذين يرعون بها صباحاً ومساء على طول شاطئ البحر، كانت البقعة ساحرة، والطقس رائع جداً حتى إنني قضيت يوماً كاملاً كعطلة، ولعله يوم العطلة الحقيقية الوحيد منذ غادرت القدس. وحيث إنني لا أستطيع أن آمل بمشاهدة سلوقيا على نحو شامل فقد قررت أن أكتفي بما أستطيع رؤيته من باب خيمتي، وقد منحني هذا القرار الرائع أربعاً وعشرين ساعة لأنظر إلى الخلف برضى عارم، مع أنه ليس فيها ما يستحق التسجيل فيما عدا أنني لم أستطع أن أهرب إلا قليلاً من المتاعب الأرمنية كما أملت.

زارتني في الصباح زيارة طويلة امرأة هبطت من قرية كابوسة، وهي قرية تقع في قمة الخانق أعلى الكهريز، وهي تتكلم الإنكليزية، وقد تعلمَتْها في مدرسة تبشيرية في عنتاب، موطنها، في جبال الأكراد، كان اسمها قيمة، وقد تركت عنتاب بسبب زواجها وهي خطوة ما تزال نادمة عليها على الرغم من أن

زوجها رجل طيب وشريف، وهو فقير جداً، بحيث لا تعرف كيف ستعيل ولديها، وبالإضافة إلى ذلك قالت: إن الناس الذين يسكنون حول كابوسة هم إما نصيرية أو أرمن وجميعهم لصوص، ورجتني أن أساعدها بالهرب إلى قبرص.

وقد روت لي جزءاً غريباً من تاريخ أسرتها الذي يبين الألم الذي تعاني منه طائفة الأقلية التي تعيش في قلب منطقة محمدية. إذا لم تستطع أن تستشهد بالظلم الرسمي، لقد أسلم أبوها عندما كانت طفلة من أجل أن يتزوج امرأة ثانية بشكل رئيسي. فتركته أم قيمة وأعالت أطفالها بقدر استطاعتها مفضلة ذلك على الخضوع للمهانة التي ألحقها بها. وقد طبعت هذه المشاجرة المرّة بين الوالدين طفولة قيمة وشبابها بطابع مظلم.

وقد أرسلت زوجها ذات صباح مع دجاجة وقصيدة شعرية كتبتها بخط يدها باللغة الإنكليزية، وقد دفعتُ ثمن الدجاجة للزوج أما القصيدة الشعرية فلا تقدر بثمن وهي تتحدث على النحو التالي:

أهلاً أهلاً يا أغلى الغوالي نحن مسرورون بقدومك!

مرحباً بقدومك مرحباً بوصولك.

لنغني بمرح.. بمرح.

بفرح يا أولادي بفرح..

الشمس أشرقت والقمر بدر يضيء بعذوبة ويتألق كثيراً يا أبنائي الأعزاء.

يا مرحباً بوصولك، يا مرحبا بابتسامتك.

الأشجار قدمت ثمارها يا أولادي والطيور تغني بسعادة..

أهلاً بعبيرها اللذيذ وهي تغني مرحبة..

وسوف أبقى المخلص لك..

جورج إبراهام.

وأنا أسرع وأضيف لئلا يعتبر الشعر جامعاً لشخصين، بأن كاتبه عيسى جورج إبراهام الذي لاحظت أثناء المساومة معه على الدجاجة أنه لا يعرف أي كلمة من اللغة الإنكليزية، ولا شك أن قيمة قد استخدمت اسم زوجها لعله أن يكون أكثر تأثيراً من اسمها، وأكثر من ذلك فإن الأولاد الذين لمحت إلى وجودهم إنما كانوا شخصيات مصنوعة، ولا أستطيع أن أقدم أي تفسير لما أرسلته الأشجار لنا ويبدو النص فاسداً عند هذه النقطة، وربما يجب أن تعتبر كلمة ـ نحن ـ مفعولاً به.

وتركت سلوقيا مع إحساس عميق وحقيقي بالأسف، عند الفجر عندما نزلت للاستحمام في البحر كان ثمة حزمتان من الغيوم الرائعة مضطجعتين على طول واجهة الهضاب، وبينما كنت أسبح في الماء الذي كان ما يزال دافئاً انبثق أول شعاع من الشمس ضارباً قمة جبل كالسيوس المغطاة بالثلج، والتي كانت تغلق على نحو فاتن تعاريج الخليج، وعدنا إلى إنطاكية مثلما جئنا منها، ونصبنا خيامنا خارج البلدة بجانب الطريق الرئيسي.

وبعد يومين انطلقنا في الساعة السادسة والنصف صباحاً في مسير طويل إلى إسكندرونة. كان الطريق رديئاً منذ بداية أمياله القليلة الأولى، تتخلله الوهاد العميقة من الوحل.

بعد ركوب ثلاث ساعات وصلنا إلى قرية قرة مورت، وبعدها بثلاثة أرباع الساعة تركنا الطريق الرئيسي وانطلقنا صعداً عبر الهضاب بجانب خان مخرب فيه آثار عربية جميلة، ويصعد الطريق تلالاً ويهبط منحدرات، بين زهور شجيرات الجنب الأكثر كثافة وزهراً، ونباتات

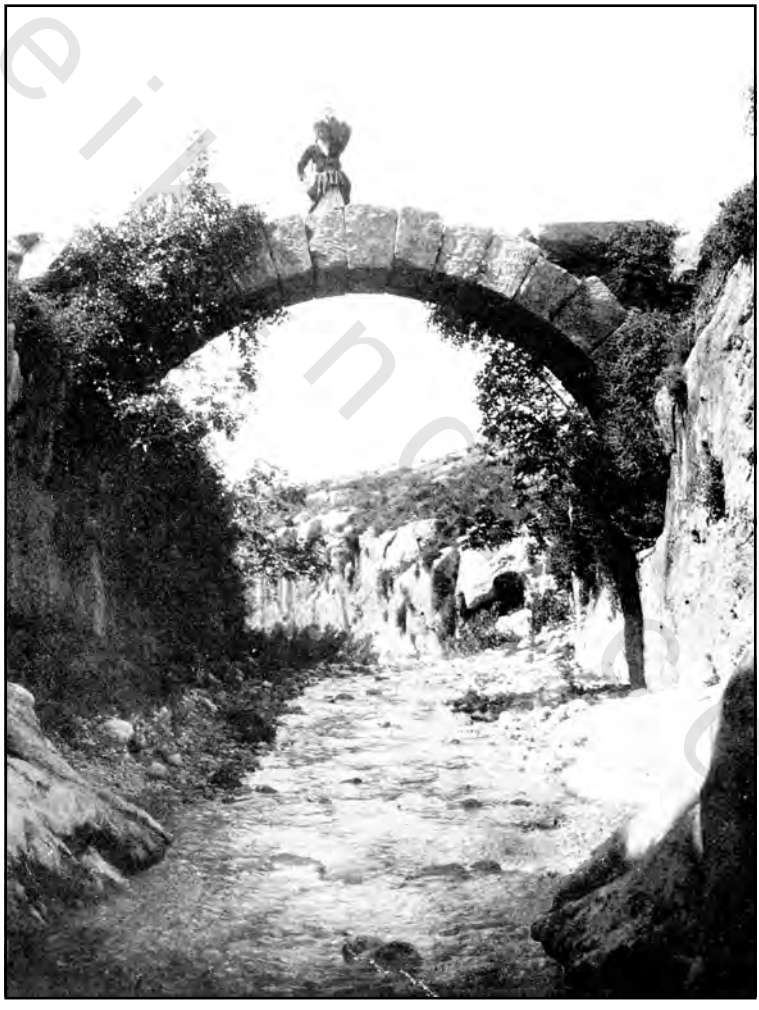

١٥٨ ـ المجرى السفلي للكهريز

الرتم والأرجوان، وتحت ذلك مرج من الأعشاب القصيرة، ورأينا إلى اليسار مشهداً رائعاً لحصن بغراس، وهو باغرا القديمة تتوج قمة التل. وأنا لا أعتقد أن مجمل الجبال الواقعة إلى شمالي إنطاكية قد تم استكشافها تصنيفيا وفيما إذا كانت يمكن أن تقدم شظايا من التحصينات السلوقية أو الرومانية التي كانت تحرس مدخل المدينة.

وقد اكتشفنا حديثاً طريق الرصيف القديم الذي يتبع مساراً أكثر انحداراً من طريق العربات الحديث. وقد قادنا السير فيه خلال ساعة واحدة إلى قمة ممر بيلان (وقد وقفنا ثلاثة أرباع الساعة للغداء في مكان ظليل على شط النهر) حيث وصلنا إلى الطريق الرئيسي بين حلب وإسكندرون.

ولا يوجد أي أثر للتحصينات كما لاحظت عند البوابات السورية حيث استدار الإسكندر راجعاً إلى سهل أيسوس حيث لاقى داريوس، وكان الممر ضيقاً جداً، ولابد أن الدفاع عنه كان سهلاً لصد الغزاة القادمين من الشمال، إنه الممر العملي الوحيد للجيش عبر جبل الأمانوس الوعر.

وتقع قرية بيلان على مسافة ساعة في موقع جميل على الجهة الشمالية للجبال مطلة على خليج إسكندرون، وعلى ساحل كيليكيا القاسي وسلسلة جبال طوروس البيضاء. والمسافة بين بيلان وإسكندرون أربع ساعات على الراكب.

وعندما كنا نهبط الهوينا باتجاه البحر اللامع عبر المنحدرات الخضراء والمزهرة والتي تشكل نهاية سوريا دخلنا في مناقشة أنا وميخائيل، استعرضنا كرحالة رفاقاً من هواة الرحلات، والحوادث التي مرت بنا أثناء طريقنا الطويل وتذكرنا المغامرات التي واجهتنا في مجاري السيول والحقول، وفي نهاية الحديث قلت:

«هذا عالَم رائع يا ميخائيل، مع العلم أن بعضهم يذمه، ومعظم أبناء آدم طيبون، أكثر منهم أشراراً».

قال ميخائيل: «إنه حسب مشيئة الله».

قلت: «بدون شك، لكن تأمل الآن أولئك الذين قابلناهم في رحلتنا، وفكر كيف أن الجميع كانوا سعداء لمساعدتنا، وحسن صنيعهم لنا، في البداية كان هناك نجيب وفريز الذي مشوا معنا في بداية طريقنا، ثم نمرود وقبلان» .

قاطع ميخائيل: «ما شاء الله، لقد كان قبلان إنساناً رائعاً، لم أشاهد بدوياً قليل الطمع مثله، إلى درجة أنه نادراً ما أكل من الطعام الذي كنت أعده له».

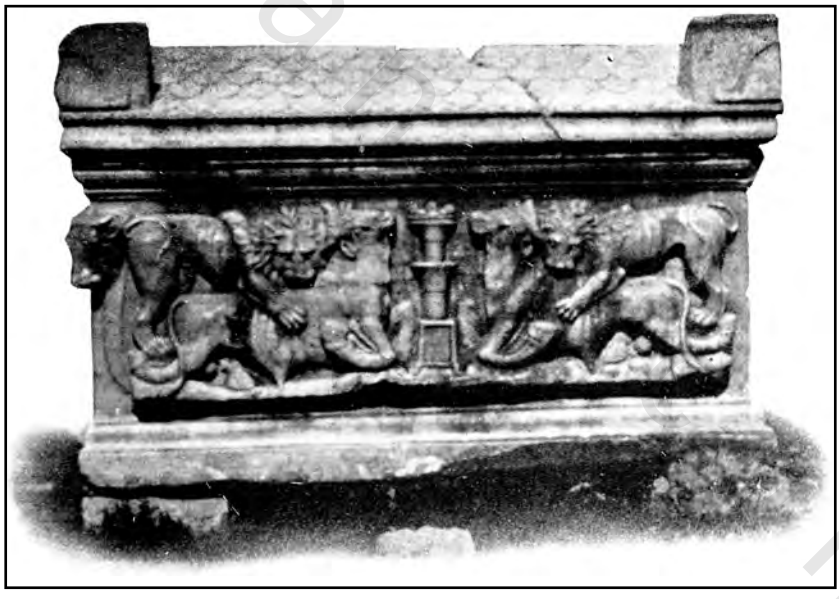

١٥٩ ـ ناووس في سرايا إنطاكية

تابعتُ: «والشيخ محمد النصر، وابن أخيه فايز، وقائم مقام قلعة الحصن الذي أوانا ليلتين وأطعمنا جميعاً، وقائم مقام دريكيش الذي عمل لنا استقبالاً،

ومحمود الشرطي» (وهنا نخر ميخائيل؛ لأنه كان على وشك الشجار مع محمود) «والشيخ يونس» وأسرعتُ في السرد: «وموسى الكردي الذي كان أفضل من الجميع».

قال ميخائيل: «كان رجلاً شريفاً، وقد خدم سعادتك على نحو جيد».

تابعتُ: «وحتى رشيد آغا، الذي كان وغداً ولكنه عاملنا بكرم».

قال ميخائيل: «انظري يا سيدتي، سوف أوضح الأمور لك.. الناس حسبما يتصورون، وهم يرون ما يبحثون عنه، فبعضهم يبحث عن الشر وهو لا يرى إلا الشر، وآخرون يبحثون عن الخير ولذلك لا يرون إلا الخير، وأكثر من ذلك ثمة أناس محظوظون وهم يرون دائماً ما يشتهون والشكر لله، وسعادتك تنتمين إلى هذا الصنف، ونرجو الله أن تتم رحلتك بسلام وأن تعودي إلى وطنك بأمان. وأن تلتقي هناك أباك وأمك وإخوتك وأخواتك بصحة وسعادة وكل أقربائك وأصدقائك بصحة وسعادة».

أضاف ميخائيل بإدراك: «ومرة ثانية نرجو الله أن تسافري وتترحلي في سوريا بسلام وأمان وسعادة».

قلت: «نرجو الله».

obeikandl.com